سَعيد حورانية

حمّى ايتماتوف

قليل من متعلمينا من لم يقرأ ايتماتوف ، والنادر فيهم من لم تصبه تلك الحمى التي اشتهرت في كل القارات باسم « حمى ايتماتوف » · ابتدأت هذه الحمى المدوخة كضربة شمس ، عندما نشر قصته « جميلة » · وكما هزت قصة « آلام فرتر » لغوته شباب اوروبا الحكيمة الغارقة في مدرسيتها الوقور لتدشن عهد انعتاق الفرد الرومانتيكي في مطلع البورجوازية ··· دخلت قصة ايتماتوف التاريخ الادبي والاجتماعي كأغنية حب فريدة في هذا العصر الصناعي الذي تشيأت فيه العواطف ، وخمدت حرارة العلاقات الانسانية ·

عبثا نفتش في حياة هذا الكاتب القرغيزي عن شيء غير عادي ، بل يمكننا ان نقول انه عاش حياة لا تتميز عن ابناء جيله · فلقد ولد عام ١٩٢٨ وادرك الحرب وعمره اثنا عشر عاما · ذهب الرجال الى القتال ، واصبح الوطن يحتاج الى كل ساعد ، فترك جنكيسز ايتماتوف المدرسة وهو في الصف الخامس ، واخذ يعمل محاسبا في وحدة الحصادات ثم امينا للمجلس القروي · وعندما انتهت الحرب الرهيبة التي خطفت معها عشرين مليونا من زهرة شباب الاتحاد السوفييتي ، اتم ايتماتوف تعليمه في المعهد البيطري المتوسط ، ثم في المعهد الزراعي ، واخذ ينشر بعض الريبورتاجات والقصص القصيرة في الصحف لفتت اليه الانظار فاعتمدته « البرافدا » كمندوب خاص الى جانب عمله بضع سنوات في المزرعة التجريبية ، وهكذا اجاب ايتماتوف بتكليف من « البرافدا » قلوات قيرغيزيا وجبالها الرائعة، ملاحقا نبض الحياة فيها ، ناهلا من منابع الحكمة الشعبية وغناها الاسطوري ، مستمعا بذهول الى جمال اغاني الرعاة ، وعزف الزوجات على « الكومور » فوق رؤوس رجالهن المتعبة ، مفعم القلب بالاسى وهو يرى ما خلفته الحرب من نكبات قاتلة ، مضطرم الروح بالغضب وهو يلمس الاثر المدمر الذي تخلفه البيروقراطية والانتهازية التي طبعت بعض الادارات في زمن عبادة الفرد ·

« آه ايها الناس ايها الناس ! ما الذي لا تستطيعونه ؟ » هكذا هتف ايتماتوف في